المبحث الثاني

طبيعة الغلو في حياة المسلمين المعاصرة

إن الغلو يقع في إطار أي تيار عقدي أو ديني ، سواء أكان تيار شريحة وصفوة أم تيار أمة ، في الأديان وغير الأديان من المذاهب والعقائد ، ووجوده في التيار الإسلامي الذي هو تيار أمة ليس وضعاً نشازاً ، بل هو متسق مع واقع الحياة الفكرية للبشر[1].

وليس هذا تبريراً للوقوع في الغلو وإنما هو بيان للواقع .

وتعد معرفة طبيعة الغلو ، مدخلاً مهماً لتقويم المشكلة وعلاجها في كل عصر من العصور، وبدون هذه المعرفة يخبط الباحث أو الدارس المعالج لهذه المشكلة خبط عشواء، وكثير من الأخطاء التي يقع فيها الدارسون للمشكلة سببها غياب الفهم لطبيعتها، ويمكن إجمال التساؤلات التي تجلي الإجابةُ عنها طبيعةَ الغلو في العصر الحديث فيما يلي :

١- هل المشكلة فعل أو رد فعل ؟

٢- هل هي مشكلة مرحلية أو مشكلة دائمة ؟

٣- هل هي مشكلة تربوية اجتماعية أو سياسية أو هي أعم من ذلك ؟

٤- هل هي مشكلة محلية في بلد واحد أو عالمية ؟

٥- هل هي مشكلة نابعة من المجتمع المسلم أو هي متأثرة بعوامل خارجية ؟

٦- هل الظاهرة فردية أو جماعية ؟

وسأحرص على بيان الإجابة لهذه التساؤلات بما يكشف طبيعة الغلو في حياة المسلمين المعاصرة .

---

(١) ينظر محمد عمارة ، جريدة الوطن ، ٢٤/ ١٠/ ١٩٨٨م .

أولاً : هل المشكلة فعل أو رد فعل ؟

إن الغلو في أصله استجابة سلوكية يميل السلوك البشري عادة إلى الانطباع بها كانعكاس لعدد من العوامل : الداخلية المتعلقة بصميم الحياة النفسية للفرد ، والخارجية المتعلقة بتأثيرات البيئة [1]، وغالباً ما يحدث الغلو في البيئات المضطربة فهو في حقيقة الأمر رد فعل وليس فعلاً ، بدليل أن الغلو باستعراض التاريخ ، يحدث غالباً في أوقات الأزمات واضطراب أحوال الأمم .

ولا يَرِدُ على هذا حدوث الغلو في عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، وعهود صحابته رضوان الله عليهم، إذ أن الغلو الذي حدث في عهودهم رد فعل لأوضاع خاطئة بزعم الغالي . فالغلو - كاعتلال فكري ، وانحراف عن الحق - يمكن أن يظهر في البيئات الصالحة المستقيمة كما حدث في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ولكن لانحراف الغالي فإنه يرى ما ليس بباطل باطلاً .

فالغلو رد فعل لفعل خاطيء سواء في حقيقة الأمر أم من وجهة نظر الغالي، فالرجل الذي اعترض على قسمة النبي صلى الله عليه وسلم يوم حنين [2] غلا وخرج على حكم النبي صلى الله عليه وسلم : لظنه أن ما فعله النبي صلى الله عليه وسلم جور وظلم ؛ إذ لم يجعل قسمة الغنائم بالسوية بين المقاتلين والسوية هي العدل في زعمه ، والخوارج الذين خرجوا على علي بن أبي طالب خرجوا احتجاجاً

---

(١) ينظر ، رعد عبدالجليل ، التطرف الديني في ايران ، ص ٢٠ .

(٢) سبق إيراد الحديث وتخريجه ص ٧١ .

على فعل خاطيء بزعمهم وهو التحكيم [1] .

وعلى هذا فإن الغلو وثيق الصلة بالبيئة والواقع والظروف الاجتماعية والسياسية وليس وليد فكر فقط ، يقول أحد الأساتذة المتخصصين في الدراسات النفسية : « إذا وجد الإنسان واقعاً لا يقبله فإنه يلجأ لا شعورياً إلى رد فعل معاكس لهذا الواقع ، وكلما كان الدافع قوياً كلما كان رد الفعل قوياً ، بل وقد يؤدي إلى التطرف والعنف»[2] وهذا الأمر دعا بعض الباحثين إلى القول بأن الغلو « مؤشر أو انعكاس لتعثر النظام السياسي والاجتماعي في مواجهة الأزمات الداخلية والخارجية »[3] وليس هذا تبرئة لساحة الغلاة وتبريراً لما وقعوا فيه . إذ أن الغلاة مرضى بما يمكن تسميته «بالقابلية للغلو »[4] فهم :

- غير أسوياء في الناحية العلمية بشرع الله .
- غير أسوياء في الفكر من حيث المنهج المستخدم لفهم نصوص الشارع .
- قليلوا الاتصال بأهل الذكر والعلم .

وهذه القابلية أو التربة الصالحة للغلو يقع وزر تهيئتها وإصلاحها لاستنبات الغلو على الغلاة أولاً .

وإن عدم فهم هذين الجانبين للمشكلة وهما :

١ - أن هناك أفعالاً شاذة هي التي أوجدت رد الفعل .

٢ - أن هناك قابلية للغلو عند الغلاة .

أوجد خللا في فهم المشكلة ، الأمر الذي أدى إلى خلل في تقويمها وعلاجها .

---

(١) انظر فتح الباري ج ٦ ص ٦١٩

(٢) د. محمد شعلان ، استاذ ورئيس قسم الأمراض العصبية بجامعة القاهرة، لقاء بجريدة الاخبار ، ١/ ٧ / ١٩٨٩ .

(٣) د/ سعد الدين ابراهيم ، مصر تراجع نفسها ص ٢٢ .

(٤) ينظر فهمي هويدي ، التطرف وأبعاده السلبية ، ص ١٤ .

والغلو في هذا العصر ينطبق عليه ما سبق من أنه رد فعل لأوضاع شاذة وخاطئة تحياها المجتمعات المسلمة ، ويؤكد هذا أحد رجال القضاء الوضعي المتمرسين بهذه المشكلة فيبين أن الغلو إنما هو رد فعل لعوامل سياسية واجتماعية وأن هذه العوامل هي التي أدت إلى ظهور هذه الجماعات ، [1] إذ معظم المجتمعات المسلمة تزخر بكثير من السلبيات التي تستفز الحليم ؛ فالمجتمع يعاني من عنف الظلم الاجتماعي ، وعنف القهر الاقتصادي ، وعنف الاستبداد ، ويعاني من الاستلاب الحضاري ، ويعاني من الفساد الأخلاقي .

فالعنف الذي يمارسه هؤلاء المتهمون بالغلو إنما هو رد فعل لعنف مضاد[2] .

يقول أحد الأساتذة : « إن تحليلي لموقف هذا الشباب المتشدد أوصلني إلى أن تطرفه نتيجة لتطرف مضاد ، أو أنه رد فعل وليس فعلاً » . [3] ويشهد لهذا أنه على مر التاريخ فإن حركات التجديد والإحياء الإسلامية في البلدان أو العهود التي اتسمت بقدر من الحرية وتحقيق مطالب الأمة ، وتحكيم شرع الله لم تتخذ طريق الغلو والعنف ولم تكن ظاهرة الغلو مطروحة ، أو مطروحة بشكل جزئي لا يصل إلى حد أن يكون ظاهرة تلفت الأنظار . ويكاد هذا - أي القول إن الغلو في العصر الحديث رد فعل - أن يكون محل اتفاق بين الباحثين المهتمين بهذه المشكلة[4] ، ومع هذا فإنه مهما كانت الأخطاء فإن علاجها هو : الإصلاح الشرعي المتزن ، وليس الغلو .

---

(١) ينظر ، رجاء العربي التطرف الديني وأبعاده السلبية ص ٢ - ٣ .

(٢) ينظر ، د/ محمد عمارة ، لقاء بجريدة الوطن الكويتية ٢٨/ ١٠/ ٨٨

(٣) د. عبدالصبور شاهين ، لقاء بجريدة عكاظ السعودية ، ١٥/ ٦/ ٨٨

(٤) ينظر إضافة إلى ما سبق : سعد الدين ابراهيم ، مصر تراجع نفسها ص ٢٢

أحمد كمال أبو المجد ، التطرف الديني وأبعاده ص ٦

فهمي هويدي ، التطرف الديني وأبعاده ص ٣ و ١٦

طارق البشري ، سيبقى الغلو ما بقي التغريب ص ٥٨ .

وأما ما العوامل التي تكون منها الفعل الذي أنتج رد الفعل ؟

وما الظروف التي كوّنت القابلية للغلو عند المتهمين به ؟ فهذا ما سبق بيانه في المبحث الأول من هذا الفصل .

ثانياً : هل هي مشكلة مرحلية أو مشكلة دائمة ؟

الذي يراه الباحث أنه للإجابة عن هذا السؤال لا بد من التفريق بين الأفراد والأمة فهي بالنسبة للأفراد مشكلة مرحلية في غالب الأحوال ، وهي بالنسبة للأمة مشكلة دائمة ويدل على مرحلية الغلو بالنسبة للأفراد الأحاديث الآتية :

١ - أن النبي صلى الله عليه وسلم بيّن أن لكل عامل شرة [١] وفترة [٢] فقال «لكل عمل (وفي رواية عابد) شرة ولكل شرة فترة فمن كانت فترته إلى سنتي فقد اهتدى ، ومن كانت فترته إلى غير ذلك فقد هلك »[٣] .

وفي رواية « ذكر لرسول الله صلى الله عليه وسلم رجال يجتهدون في العبادة اجتهاداً شديداً فقال : تلك ضراوة الإسلام وشرته ، لكل ضرواة شرة ولكل شرة فترة فمن كانت فترته إلى اقتصاد وسنه فلأمٍ[٤] ما هو ، ومن كانت فترته إلى المعاصي فقد هلك »[٥] .

---

(١) الشرة ، بكسر الشين المعجمة ، وتشديد الراء المفتوحة : النشاط والرغبة ، انظر أحمد شاكر ، شرح المسند ج ٩ ص ١٩٢ .

(٢) الفترة ، بفتح الفاء وسكون التاء أي وهناً وضعفاً وسكوناً بعد حدة ، ولياناً بعد شدة ، ينظر أحمد شاكر ، شرح المسند ج ٩ ، ص ١٩٢ .

(٣) رواه أحمد (٢/ ١٨٨) وقال الشيخ أحمد شاكر في شرح المسند صحيح ج١١ ص ٤٠ ورواه ابن أبي عاصم في السنة (١/ ٢٨) قال الألباني في تخريجه اسناده صحيح على شرط الشيخين .

(٤) قال ابن الأثير في بيان معنى قوله (فلأم ما هو) : «أي قصد الطريق ، يقال أمه يؤمه أماً وتأمه وتيممه ، ويحتمل أن يكون الأم أقيم مقام المأموم أي هو على طريق ينبغي أن ينصد» النهاية في غريب الحديث ج ١ ص ٦٩

(٥) رواه أحمد (٢/ ١٦٥) قال الشيخ أحمد شاكر : اسناده صحيح ، شرح المسند ج ١٠ ص ٥٠ .

وهذا الحديث يفيد أن الإنسان قد يجتهد في الدين ، ويصل به الحال إلى الغلو والشدة في التمسك ثم تهدأ حدته إلى قصد في الأمر ، وأبان عليه الصلاة والسلام أن الفترة التي تعقب الغلو ينبغي أن تكون إلى سنة[1] .

٢- أن الغالي في غالب الأحوال ينتهي غلوه إلى أحد أمرين :

أ- أن يصير إلى انقطاع كما بين الرسول صلى الله عليه وسلم ذلك بقوله : « لن يشاد الدين أحد إلا غلبه »[2] قال ابن حجر : « والمعنى لا يتعمق أحدٌ في الأعمال الدينية ويترك الرفق إلا عجز وانقطع فيُغْلَب»[3] .

ب- أن يتبين له خطأ فعله فيعود إلى الحق والصواب ، كما وقع ذلك للنفر الثلاثة الذين استنكر عليهم الرسول صلى الله عليه وسلم غلوهم وتحريمهم للطيبات ، فرجعوا عما أزمعوا القيام به[4] .

هذا بالنسبة للأفراد أما بالنسبة لمجموع الأمة فالأمر غير هذا إذ أن الغلو حالة دائمة تتسع وتضيق بحسب اتساع عواملها فلا يكاد يخلو زمان من وجود غلاة واستعراض التاريخ من لدن رسول الله صلى الله عليه وسلم يشهد لهذا .

ثالثاً : هل المشكلة محلية في بلدٍ واحدٍ أو هي عالمية؟

إن هذه المشكلة ليست مشكلة محلية ، مقتصرة على بلد واحد بل أصبحت مشكلة عالمية تشمل جميع أرجاء الوطن الإسلامي من ماليزيا وأندونيسيا إلى أقصى المغرب ، والذين يتابعون أخبار العالم الإسلامي يرون كثرة تردد أخبار الجماعات المتهمة بالغلو في أجهزة الإعلام وخصوصاً الغربية فطوراً نسمع

---

(١) أنظر أحمد شاكر ، شرح مسند أحمد ، ج ١١ ص ٤٠ .

(٢) سبق تخريجه ص ٣٦ .

(٣) فتح الباري ج ١ ص ٩٤

(٤) الحديث سبق تخريجه ص ٧٧ ، وينظر ابن حجر ، فتح الباري ج ٩ ص ١٠٤ .

عن التطرف في نيجيريا وطوراً نسمع عنه في ماليزيا أو مصر أو في الجزائر أو غيرها من البلاد الإسلامية[1].

وبغض النظر عن صدق هذه الأخبار أو عدمه فإن المهم أن هذه المشكلة مطروحة على الساحة في كثير من البلاد الإسلامية . ولكنها تتفاوت في الحدة ، فهي في بعض البلدان أكبر وأظهر من البعض الآخر ؛ وهذا يعود لقوة العوامل المنتجة لهذه المشكلة وضعفها في كل بلد من البلاد الإسلامية .

رابعاً: هل هي مشكلة نابعة من المجتمع أو هي مشكلة وافدة ؟

يؤكد بعض العلمانيين على نسبة مشكلة الغلو لجهات خارجية ويحاولون جاهدين إثبات صلة بين الجماعات المتهمة بالغلو وبين إيران على سبيل المثال .[2] بل يذهب بعضهم إلى حد محاولة نسبة هذه الجماعات المتهمة بالغلو إلى أمريكا .[3] وأن المال الخليجي هو الذي يمول هذه الجماعات على حد زعمه[4].

وهذا الكلام لا يسنده أي برهان علمي ، بل أصبح بعض من يكتب عن المشكلة يكتب عنها وكأن المتهمين بها أناس من خارج المجتمعات الإسلامية الأمر الذي دفع بعض المهتمين بدراسة القضية من علماء الاجتماع إلى إطلاق استغاثة تقول : «المتطرفون ليسوا من المريخ »[5] بين فيها أن وسائل الإعلام تتحدث عن المتطرفين كما لو كانوا نزلوا علينا من المريخ أو أنهم بلا جذور في المجتمع أو أنهم غرباء وفدوا إلى أرضنا ويقول : « إنني

---

(١) ينظر أحمد كمال ابو المجد ، التطرف الديني وأبعاده ، ص ٥

(٢) مجلة فكر ، ندوة التطرف ، عدد ٨ ، ص ٧٤

(٣) المصدر نفسه ، ص ٨٠

(٤) المصدر نفسه ، ص ٧٤ - ٨٠

(٥) سعد الدين إبراهيم ، مصر تراجع نفسها ص ١٣

أقول مستغيثاً : إن هؤلاء المتطرفين هم من صلب المجتمع المصري وبالأحرى هم ينحدرون من أهم شريحة في الطبقات الوسطى ».[1]

وقد توصل هذا الكاتب نفسه بعد دراسة ميدانية إلى أن المتهمين بالغلو يتميزون بعدة ميزات منها :

١- أنهم شبان إذ أن ما يقارب ٩٠٪ منهم في العشرينات أو الثلاثينات من أعمارهم .

٢- أنهم تلقوا تعليماً عالياً ، فقريبا من ٨٠٪ منهم طلاب جامعيون أو خريجون .

٣- أنهم متفوقون دراسياً .

٤- أنهم ينتمون إلى الطبقة الوسطى في المجتمع .

٥- أنهم ينتمون إلى أصول ريفية .[2] وهذا يؤكد القول بمحلية منبع المشكلة ، وعدم صحة كونها مشكلة مصدرة أو وافده ، نعم قد تكون متأثرة بشكل محدود بظاهرة ما مثل الثورة الإيرانية ، لكن لا يمكن نسبتها إلى هذه الظاهرة وأنها نتاج لها بدون دليل ولا برهان ، ومما يؤكد نفي هذه العلاقة أن الجماعات المتهمة بالغلو هي من أشد الجماعات حرصاً على التميز العقدي بين أهل السنة والجماعة وبين الشيعة . صحيح أن الجماعات الشيعية الغالية ذات صلة بالثورة الإيرانية، أما المتهمون بالغلو من أهل السنة فأمر اتصالهم بإيران لا يزال دعوى بدون دليل .

خامسا : هل المشكلة فردية أو جماعية ؟

إن الذي يظهر للباحث أن كون المشكلة فردية أو جماعية أمرٌ دائر مع نوع الغلو : فإن كان الغلو غلواً كلياً اعتقادياً فهو جماعي ، وإن كان غلواً جزئياً عملياً فهو غلو فردي وهذا في غالب الأحوال ، والغلو في حياة المسلمين المعاصرة

---

(١) المصدر نفسه ص ١٣ .

(٢) سعدالدين إبراهيم ، الصحوة الإسلامية المعاصرة ، ندوة عمان ، ص ٤٠٠.

يبـدو عليـه غلبة الجانب الجماعي ، فالمطروح على السـاحة للبحث والدراسة هو الغلـو الكلي الاعتقادي الجماعي ، وهـذا لا ينفي وجود الغلـو الفردي وإنما لمّا كان الجماعي أكثر خطورة كان أحظى بالاهتمام والمعالجة .

سادساً : هل المشكلة تربوية أو اجتماعية أو سياسية أو هي أعم من ذلك؟

يجمل بعض الباحثين العلمانيين اتجاهـات الكتاب وأقسامهم في نظـرتهم لطبيعة المشكلة إلى خمسة اتجاهات هي :

الاتجاه الأول ويرون أنها مشكلة تشريعية .

الاتجاه الثاني ويرون أنها مشكلة دينية .

الاتجاه الثالث ويرون أنها مشكلة هوية .

الاتجاه الرابع ويرون أنها مشكلة حضارية .

الاتجاه الخامس ويرون أنها مشكلة سياسية[1].

والحق أن القضية ذات أبعـاد مختلفة ، إذ العـوامل المسـاعدة على نشـوئها كثيرة ومتنوعة وآثارها كثيرة كـذلك ، وليست منصبة على جانب واحد ، فهي مشكلة هويـة لأن المتهمين بالغلـو يهدفون إلى إثبـات الهوية الإسـلامية في مقـابل التطرف التغـريبي والعلماني الـذي اكتسح ديـار المسلمين ، وهي مشكلـة حضـاريـة لأن المتهمـين بالغلـو ظهـروا كرد فعـل لأخـذ الحضـارة الغربيـة بعجرهـا وبجرها « وسيبقى الغلـو ، مـا بقي التغريب»[2]. وهي مشكلة دينيـة لأن المنطلق الأساس للمتهمين بـالغلو هـو الدين فهـو يمثل المحـور لكل المطالب التي يـدعون إليهـا ، والـدين أعـم من أن يضيق فهـو دين شـامـل لكل جـوانب الحيـاة

---

(١) فرج فوده ، التطـرف الديني ، مجلة فكر ، عـدد ٨ ص ٣٥ - ٣٦ وليلاحظ أنه في عرضـه لاتجاهات الكتاب في فهم طبيعة الغلو متأثر بمفهوم الغلو عنده هو ومن عرض اتجاهاتهم .

(٢) طارق البشري ، سيبقى العلو ما بقي التغريب : ص ٥٨ .

وهي مشكلة سياسيـة لأن السياسة جزء من الدين المتكـامل البناء ، ولأن الغلو يمثل خطـراً على المجتمع في جـانبـه السيـاسي أكبر من أي جـانب آخـر ، ومعظم مطالب المتهمين بالغلو تتعلق بالحكم والتحكيم .

وبهذا يمكنني القول إنّ مشكلة الغلو في الحياة المعاصرة ذات أبعاد مختلفة ويجب إلاّ ننظر إليها من زاوية واحدة .